ولا اظن ان اشد التعاليم قساوة يصح في شرعها ان تشجب مظهراً كهذا من مظاهر اليأس والقنوط او تقضي عليه قضاءها المبرم بل اني اضرب صفحاً عن حديث هذه الشؤون وكله شجون حتى اني لانحي على نفسي بالملائمة لاستيقافي خاطر القارىء ولو هنيهة لدى مثل هذا المشهد المؤلم .

البقية تأتي

التعليم والتربية في السجون

التعليم والتربية من اكبر عوامل النهوض في الامم — شيء عن المدنية الحديثة — جناياتها على الآداب — صبي في احضان والدة جاهلة ووالد جاهل — لص يسطو على المنازل ليلا — تستأصل شأفة الاشقياء بالتعليم والتهذيب — يتيسر تلافي ضرر المسجونين فيما بعد بتربيتهم وتعليمهم في السجون — سجون الاحداث — الفقر يدفع بصاحبه الى اتيان الذنوب — كلمة عامة ورأي عالم غربي

اجمع علماء التربية واتفقوا على ان الامة اذا كثر فيها وتعدد العلماء وازداد فيها عدد القارئين والقارئات يتسنى لها ان تجري في مجرى الارتقاء والتقدم بسرعة زائدة دون ان تعوقها عن سيرها احدى العوائق، ويوقفها في سبيل مجاراة الامم المتمدنة مانع من الموانع ، وحسبك دليلاً على ذلك ما بلغته الامم والطوائف الغربية من التمدين ، وما وصلت اليه من العظمة والابهة . وما منشأ هذا كله ومصدره الا التهذيب والتعليم الذي سرى في جسم تلك الامم

فنغذت به ونبغ فيها عدد ليس بالقليل من رجال العلم وحملة الاقلام والفلاسفة، وكثير من كبار المكتشفين والمخترعين . وقد كانوا قليلين في غابر الازمان فاخذوا يعملون ويشغلون قرائحهم بالبحث في ترقية امهم ولما لم يجدوا وسيلة انفع من التعليم والتهذيب في رقيّ الامة ونشر المدينة في ارجائها عمدوا اليها حتى بات الآن عدد من لا يعرفون القراءة والكتابة في تلك الامم لا يقاس بجانب المجيدين فيها والملمين بها ، ونشأ عن ذلك ان اخذت افكار اولئك الاقوام ترتقي وامسى لا يمر علينا يوم او يومان الا ونسمع بذكر اختراع يذهل العقول ويحير الالباب ، ولا يمضي علينا وقت قصير حتى ينقل الينا نبأ جديد مؤداه اكتشاف حقيقة من الحقائق العلمية ، او طبع كتاب خدم الادب والادباء ، او سفر علمي اعان على ادراك كثير من المسائل العلمية ، او تاريخي يبحث في نقطة تاريخية هامة ويجمع فوائد جزيلة يصعب على الانسان ان يحصل عليها ، ولا يتيسر للمتوغل ان يعرفها الا بعد انفاق اعزّ اوقاته في البحث والتنقيب في الكتب القديمة وربما لا يعود بما يشفي غليله بعد بحثه الطويل ، — لا تنقضي فترة من الزمن حتى تنقل لنا صحف الغرب ذكر ظهور تلك الكتب في عالم المطبوعات وكذلك اضرابها من الكتب الاجتماعية التي تذكر عيوب المجتمع وتصف الادوية التي تذهب بادوائه .

ان ما قرره واثبته اساطين التهذيب من العلاقة الشديدة والرابطة القوية التي بين « رقيّ الامم وتمدينها » و « تحليها بالاداب وانتشار العلوم بين افرادها » وما لكل من الامرين من العلاقة بالاخر وترتب الاول على الثاني حقيقي وبديهي يدركه ذوو الاختبار والمعرفة بنتائج تلك العلوم وما

يترتب على انتشار الآداب بين طبقات الامة، وقد زاد على ذلك جماعة الكتاب فقالوا الامة اذا اخذت من العلوم غايتها وتأدبت ناشئتها فبعيد عليها كل البعد ان تميل الى الشرور، ويبذر في قلوب افرادها بذور الفساد والسير على اهواء النفس، وتحقيق غرض من الاغراض الدنيئة والامور السافلة، وهكذا تبطل الجرائم وتزول اسباب الخصام من الناس، ولا نعود نسمع بذكر فاجعة مؤلمة تهلع لها افئدتنا وتطير لها نفوسنا شعاعا. انشأ الكتاب يسطرون ذلك ويبنون على المدنية الحديثة كثيراً من الآراء ويستنتجون منها ما يستنتجون ويقولون انها ستبث السلم في كل بلدٍ تدخله وتنشر الفضيلة في الامم التي تطرق ابوابها، ولكن فاتهم امران: اولهما ان هذه المدنية الجديدة اعطت الناس حرية زائدة فبعد ان كنا نسمع بالعقاب الشديد الذي يعاقب به الزاني والزانية في عهد النبي (ص) والصحابة (رض) حتى استقام امر الناس اصبحنا نرى من السيدات من يتهتكن، والفاجرات يزددن في كل يوم عدداً ولا رقيب على ذلك، وصرنا نشاهد الشبان يتزاحمون على محلات الفجور ويقصدون اماكن الخلاعة. وليت هذا كان كل ما نجم عن اطلاق الحرية لاولئك الفاجرات وكانت النتيجة فقط ان هؤلاء الشبان اصيبوا بامراض معدية وفقدوا صحتهم بل زد على ذلك ان منهم من جعل يتسابق مع رفيقه في جذب قلب امرأة يهواها نحوه فيذهب الى منزله وهو مقطب الوجه غضوب يتمايل ذات اليمين وذات اليسار من نشوة الصهباء ويعامل زوجته معاملة ينكرها اهل الفضيلة ويخجل من ذكرها ذوو الشهامة فيذيق زوجته واولاده مرارة العيش ويريهم اصناف العذاب فلا ينقضي زمن قصير حتى يودعوا الحياة غير آسفين على عالم ملىء بالشرور

وصارت المعاصي ديدناً لابنائه ..! وقد يفضي حال اولئك الشبان الى ان احدهم يتربص للاخر في طريق من الطرق حتى اذا سار فيه ذاك الرجل انقض عليه الاخر انقضاض الوحش على فريسته فضربه ضرباً مبرحاً وربما قتله ، ففي الحالة الاولى يساق الضارب الى السجن فيختلط فيه بكثير من الزعانف والسوقة ويكتسب من اخلاقهم الفاسدة ويتطبع برذائلهم وقبائحهم فيترك السجن بعدئذ وهو جرثومة فساد قوية في جسم الامة ، يفقد سمعته ويخسر شرفه ويصير محقراً مرذولا ، وبعد ان كان لا يقدم الا على الضرب وامثاله يضحي وهو يستسهل القتل والفتك بغريمه في سبيل مطامعه ومآربه فما الذي يجب على الهيئة الحاكمة فعله لتوقي هذا الضرر الكبير .

هذا صبي تربى في احضان والدة لم تتعلم ولم تتهذب وكان والده ممن غطى الجهل على ابصارهم فلم يدروا كيف يربون ابناءهم تربية صحيحة تفتح لهم ابواب السعادة في مستقبلهم ، فنشأ الولد وشب ونفسه غير منصرفة للعمل الصالح فاخذ يسرق من جيوب عابري الطرق حتى اذا ما لمحه احد رجال الشرطة وهو يتهيأ لهذا الفعل القبيح قبض عليه وذهب به الى محل التحقيق فيحكم عليه بالسجن مدة معينة ، فان لم يجد هذا الولد في السجن من الروادع والزواجر ما يزجره عن عمله هذا لا بد ان يعود اليه بعد مفارقته سجنه ومبارحته اياه ، فما هو الواجب الذي يجب على اولياء الامور اداءه نحو ذلك حتى يصبح هذا الولد فيما بعد عضواً عاملاً في المجتمع الانساني وخادماً لامته .

ذاك لص يسترق الخطى ويسطو على المنازل ليلا فينهب منها ما يهب واذا رآه صاحب المنزل وشاء القبض عليه اسرع ذاك اللص فوثب على

سطح الدار وما هي الا لحظة حتى يكون في طريق بعيد عن المنزل الذي سرق منه المتاع والنقود ، وتراه يركض في سبيله حتى يبلغ منزله فيدخله وهو آمن مطمئن . قد يأتي يوم يكون فيه هذا اللص من امهر اللصوص واتقنهم لهذه الحرفة الدنيئة وهذا العمل الشائن ، ثم يتقدم فيها حتى يكون من كبار المجرمين الذين يخشى شرهم في كل لحظة وآن . وربما يقبض عليه مرة وهو شارع في سرقة كبيرة فيساق الى غياهب السجون ويبقى ثمة زمناً محدوداً ، فما هي الوسيلة التي يلزم القائمون بشؤون الامة ان يتخذوها ليتلافى ضرر هذا الرجل بعد ان يطلق من سجنه ويغادر محبسه .

قلنا ان التربيـة والتعليم هما افضل وسيلة بعد الدين لهداية الانسان ، والسير به في طريق الاستقامة والصلاح ، وارشاده الى سبيل الخير والمنفعة ، وابعاده عن طرق الفساد والضلال . وقد فاتنا ان نذكر ان من الواجب مزج التربية والتعليم بشيء من اصول الدين وقواعده حتى يكون لذلك وقع في النفوس وكفٌّ عن الفحشاء وفعل المنكرات . فلو اهتمت الهيئة الحاكمة بذاك السجين الاول المتعلم الذي قاده الى سجنه خداع الفاجرات وكان العامل الاول في زجه فيه غرامه الفاسد الذي انساه دينه ودنياه ولعب بفؤاده فطرحه في مهاوي الذل والهوان — لو اهتمت الهيئة الحاكمة به وبامثاله فاقامت لهم مكاناً منفرداً يحتبسون فيه وهناك يتلقون دروس الارشاد والدين والنصائح فانها يمكنها ان تصلح اخلاق اولئك الشبان او بعضهم ، فيتركون هذا السجن وقد علموا كثيراً من اسرار الحياة وحقيقة حالهم ، فينتبهون من غفلتهم ويستفيقون من رقدتهم ، ويأخذون في سبيل الجد والعمل بما فيه نفعهم ونفع امتهم بدل ان كانوا يعيشون فيها فساداً .

ولقد فاتنا ايضاً ان نذكر الامر الثاني الذي لم يلتفت اليه اهل البحث ولم يدركوا عاقبته وهو انه غالباً لا تسلم امة من الامم حتى التي انتشر التعليم بين افرادها من وجود فئة من الجهال دأبها الفساد وعدم توطيد اركان الامن في الامة ، فهي تكون كوباء اذا انتشر في جسمها لا بد ان يسلب منها روح الاحساس والشعور ويعديها بادواء خطرة على حياتها ، فهذه الفئة جرثومة داء معد يجب استئصالها قبل تفاقم شرها . وانجع وسيلة لذلك ان يعلم اولئك الافراد القراءة والكتابة في سجونهم ويدربوا على حرفة يتوصلون بها الى الحصول على ضروريات الحياة والمعاش ويلقنوا شيئاً من الدين ويعلموا العبادات ، فمتى انقضت مدة سجنهم كانت همتهم موجهة الى الاشتغال بحرفتهم بجد واهتمام متبعين قواعد تلقوها وسائرين على قوانين تعلموها تضمن لهم المستقبل الحسن ، فهم يمكنهم ضبط حساباتهم ومطالعة الكتب التهذيبية والعملية التي توسع مداركهم وتهذب اخلاقهم ، وهكذا يزول الخطر الذي كان يحدق بالامة بسببهم .

يوجد مسألة جديرة بالاهتمام وصرف العناية اليها وهي مسألة الاطفال الذين يتراوح عمرهم بين السابعة والثانية عشرة والذين نشأوا وقد تعودوا السلب والسرقة . هؤلاء هم الذين يجب الاهتمام بهم اكثر من غيرهم ولهذا الداعي نشاهد ان اغلب الامم المتمدنة اقامت لهم مساكن ليتعلموا فيها حرفة يعيشون منها وانشأت تدربهم على الاخلاق الفاضلة والصنعات الحميدة ، وبعضهم جعلت تعلمهم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب وغير ذلك من مبادىء العلوم التي لها علاقة بالاجتماع والتي هي من ضروريات المعرفة

بشؤون المعيشة ، واريد ان اسطر هنا الفائدة الكبرى التي نشأت عن ذلك واهمية سجون الاحداث التي تقام لامثال هؤلاء الاولاد .

قال احد الشعراء :

هذب وليدك وهو طفلٌ يافعٌ ثم اغذه بالعلم من عهد الصغر
فالغصن يسهل وهو لدن فتله واذا نما ان شئت تعدله انكسر

ولقد صدق الشاعر في قوله وتشبيهه . وما الفتى عندي في مهد صباه الا كالمرآة فكما انها تقبل وينطبع فيها ما يعرض عليها ويتجلى امامها من الاشكال كذلك الفتى اذا عودته منذ نعومة اظفاره التخلق بجميل الاخلاق ولقنته دروس الحكمة والادب فانه يكون ويبقى دائماً من خيرة المتأدبين المتهذبين المتفانين في نشر الحقائق والدفاع دائماً عن الآداب العمومية ، ويكفي دليلاً على ذلك اولئك الفتيان الذين نشأوا وهم لا يستطيعون ان يتخلوا عن اتيان النقائص والقبائح التي شبوا عليها وتعودوها منذ عهد حداثتهم فاصبحت من الزم طباعهم ، لا يمكنهم ان يهجروها او يستبدلوها بغيرها من الطباع الحسنة والصفات الكريمة ، فهي تقودهم الى عمل كل قبيح وفعل كل منكر وتسلبهم صفات الشرف والفضيلة وتجعلهم يتخلقون ويتطبعون بطبائع البهائم والوحوش ، بيد ان ذاك الذي لم يتعود منذ صغره الا كل خلة محمودة يكبر وهو متمسكٌ بتلك المزايا ولا يفارقها ابداً ، فهو في كل وقت اخو المروءة والفضيلة وصاحب العفة والامانة وابن الكرم والشرف ورب الوفاء والاخلاص — يكفي بذكر ذلك ان يكون القارىء على بصيرة من ان المرء اذا تعود وهو في حالة الصغر وتربى على اخلاق كريمة وصفات جميلة لا بد ان تلازمه في جميع ادوار حياته ولا تفارقه الا

عند مفارقة روحه جسده ، وكذلك العكس : اذا ترعرع الصبي وهو لا يدري من حياته سوى السرقة والنهب فانه لا يتسنى له ان يترك هذه النقائص بل ربما يزداد تعلقاً بها في مستقبل حياته . ولقد رأت الامم المتمدنة ان وجود امثال الاخير بين الناس واطلاق الحرية لهم مما لا يوفر اسباب الامن ويجعل هؤلاء الاولاد خطراً كبيراً في المستقبل على الراحة والامن والنظام ، فما كان منها الا انها انشأت لهم داراً وقبضت عليهم وجعلتها لهم كمحبس ولكنه ليس كالمحابس العمومية بل انها خصته بشيء هام وهو تعليم وتربية مسجونيه ، فترى فيه الصبي يذوق اصناف الضرب عقاباً له اذا اقدم على فعل اي امر مستهجن قبيح ، فيتولاه الخوف ويكف عن افعاله المنكرة تدريجياً . وتشاهده فيه يتعلم ما تتوق اليه نفسه من الحرف والصنائع بهمة ونشاط ، وتجده ايضاً يتلقن مبادىء العلوم بعد ان يعلم القراءة والكتابة فيخرج من تلك الدار التي يدعونها « بسجن الاحداث » وهو ينكر نفسه في غابر ايامه وماضي اوقاته ويعيش عيشة مرضية وهو لا يفتر لحظة عن فعل ما فيه فائدته ونفع امته ، فيغدو من الوطنيين الباحثين عن فائدة بلادهم بعد ان كان عضواً اشلّ في جسم الامة . يزول ما كان ينتظر ان يأتيه من الفظائع في مستقبل ايامه ويضحى من خيرة الرجال العاملين ، وبدل ان يكون من اهل الرذائل المجرمين الذين يهددون اركان النظام يصبح من ذوي المحامد والمحاسن المقيدين للعدالة والمدافعين عن الحقوق ، وبعد ان يكون حملاً ثقيلاً على عاتق الهيئة الاجتماعية يمسي وهو عامل مجد مقتصد في ماله يطالع الكتب الادبية ويتدرج في المعرفة والالمام بالعلوم — يساعد في اتمام كل قصد نبيل ويعين على القيام بكل مشروع مفيد وبذلك تجني منه الامة فائدة ومنفعة .

ومجمل القول ان من الواجب على كل امة بلغت درجة في الحضارة ووصلت الى مرتبة من مراتب المدنية ان تنظر بعين الاهتمام الى من تسجنهم لأرتكابهم الجرائم الكبرى وغير ذلك من الاسباب وتفعل معهم وسيلة يمكنها بها ان تطمئن وتضمن صلاحهم في المستقبل وتمنع وصول شرهم الى الناس وهذه الوسيلة هي ان تنيط بعضهم بان يلقى عليهم دروس التهذيب والارشاد ثم تعلمهم القراءة والكتابة وتدربهم على حرفة يتيسر لهم بها ان يتمكنوا من الحصول على ما به يتعيشون بعد مغادرتهم سجونهم . ومن السائغ ان يكون ما دفعهم الى ارتكاب ما يخالف القانون حتى اودعوا السجن هو ان موارد الكسب وابوابه كانت موصدة في وجوههم فان الانسان متى وصل الى مثل هذه الحال يدخل في قلبه اليأس ويكاد يجن فلا يرى امامه الا واحداً من سبل ثلاثة وهي : اما ان ينتحر وبذلك يستريح من دنياه ، واما ان يتجاسر على القتل وارتكاب افظع الجرائم اذا كان يرى في ذلك نيل مراده ، واما ان يحمل ما اصابه بالصبر والرجاء ، وقل من اتصف بالامر الاخير . واغلب الجهال لا يسلكون الا السبيل الثاني الذي تكون عاقبته الدمار والهلاك . فالهيئة الحاكمة بفعلها ما ذكرنا تأمن شر الناس وتؤدي الواجب عليها نحو رعاياها . وما احلى كلمات احد كبار فلاسفة وشعراء الغرب التي تفسيرها بالعربية « الامة كالجسم ووظيفة الهيئة الحاكمة فيها كوظيفة القلب في ذاك الجسم ، فكما ان القلب يلزمه ان يغذي كل جزء من اجزاء الجسم بالدم وهو الذي يصلح الدم الفاسد ، كذلك الهيئة الحاكمة يجب عليها ان تراقب حال الامة ، فاذا رأت ان بعض الافراد يشكو من عدم وجود موارد الكسب دلته هي عليها وارشدته اليها وساعدته في بلوغ

مأربه ، واذا شاهدت من الناس من ليس لهم حرفة يحترفون بها اخذت على عهدتها امر تعليمهم احدى الحرف حتى يمكنهم ان يقوموا باودهم ، وبذلك تؤدي الواجب عليها وتمنع اولئك الافراد من اتيان الذنوب وارتكاب الآثام »

(احمد زكي ابو شادي)

پيير لوتي

(في مصر)

قدم مصر شتاء هذا العام الكاتب الفرنساوي الرحالة الطائر الصيت پيير لوتي (*Pierre Loti*) ليكتب عنها كتاباً ولما كان هذا المؤلف الشهير من رجال العصر العظام فلا نرى مندوحة من ذكر شيء عن تاريخ حياته

ولد (پيير لوتي) سنة ١٨٥٠ في ثغر روشفور احد ثغور فرنسا الحربية وولع من حداثة سنه بالبحر وفي سنة ١٨٦٧ انخرط في سلك الجندية البحرية وهو في السنة السابعة عشرة من عمره وطاف المحيط الهادي على ظهر المدرعة (بوردا) وزار بلاد السنغال . والتونكين . واليابان . فافادته هذه الرحلة كثيراً لانها الهمته كثيراً من التخيلات والتصورات فكتب الكتب الجميلة واشتهر بها . وفي سنة ١٨٩٩ سافر الى بلاد الصين ثانية بعدما منحته وزارة البحرية لقب قبطان ثم عاد اليها للمرة الثالثة سنة ١٩٠٠

* * *

وما كادت شهرة لوتي تطبق الآفاق لما جاء في كتبه من بديع